

ترجمة لنص محمد الذيب (الخبز)

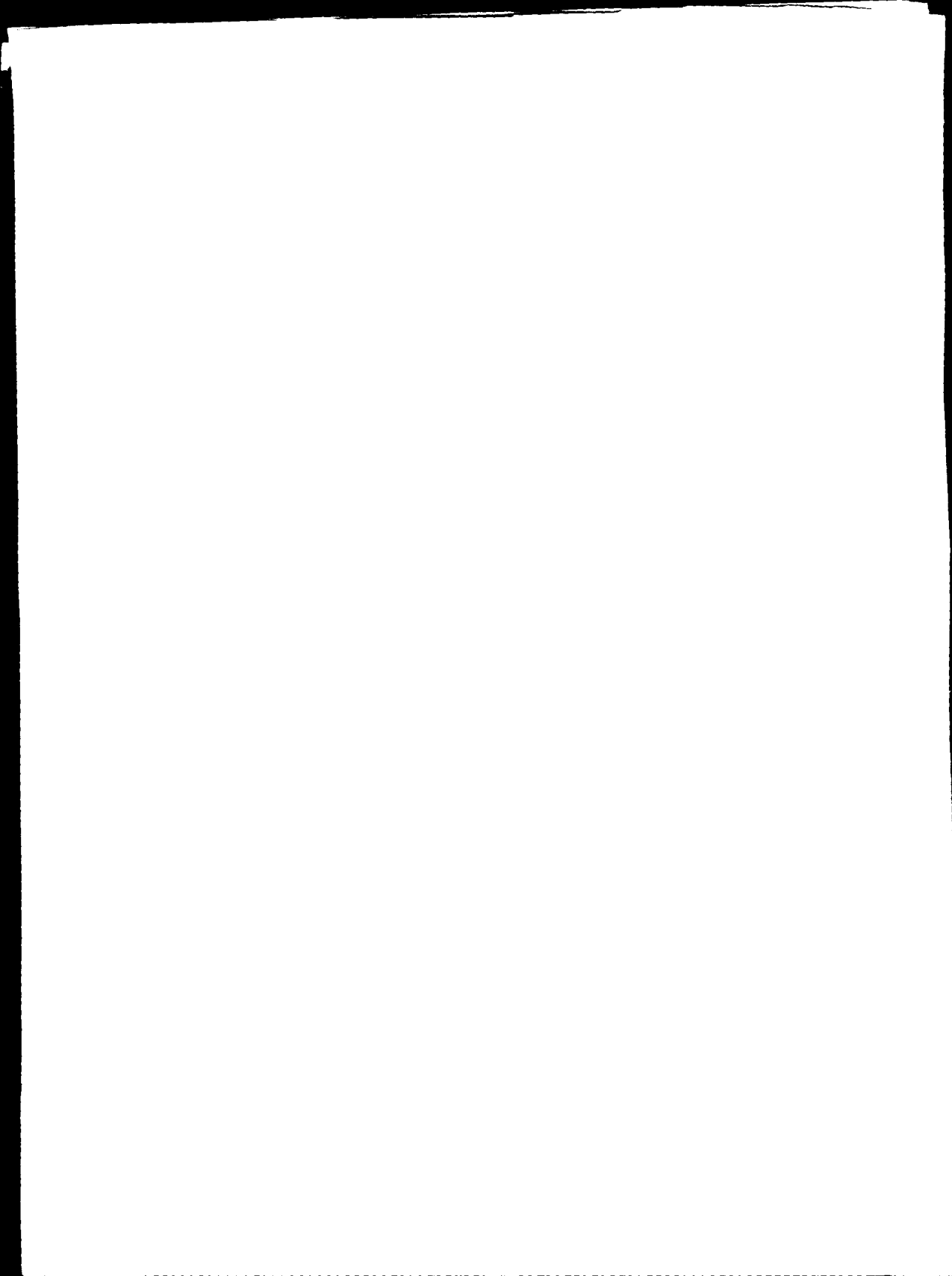
أ/ مهتاري فائزة

جامعة تلمسان

ترجمة: ترجمة لنص من كتاب محمد ديب تلمسان أو أماكن الكتابة "نحن نعيش في حميمة الخبز" فخبزنا لم يكن يؤتى به إلينا، إذ لم يكن من اللائق أبدا أن يصنع الغير خبزا لنا، كخباز وهو رجل، ويقدم إلينا جاهزا مقابل بعض النقود، كان خبزا لا يصنع إلا بيدي أمي ولا أحد سواها فلا قرية ولا أخت كبرى أو عمّة أو جارة، فالتخمين في الخبز يرجعنا إلى الأم والعكس صحيح أي أن التخمين في الأم يرجع بنا إلى الخبز، فالأول والثاني مرتبطين إلى درجة أن استهلاك الخبز يرجع بنا إلى استهلاك أمومة أمتنا وأن حبنا لخبزنا معناه حبنا لأننا.

في البداية كان الطحين متوفرا في بيتنا ضمن أكياس من خمسين أو مئة كيلوغرام، أين كانت الأم تعرف عددا من المكايل الضرورية لصنع خبز اليوم أو على الأكثر خبز الغد. ونحن لم نكن نخبذ استهلاك الخبز إذا طال عمره أكثر من ذلك بقدر ما كنا لا نخبذ استهلاك أطباق الأمس لأنها سرعان ما تتلف أو تتخمر، أما بالنسبة للخبز فكنا نتمتع بمذاقه الطازج الذي نخبه جميعا.

كانت أمي تزن بواسطة طاس من النحاس، كنا نستعملها أيضا للاغتسال في الحمام، الكمية الضرورية لصنع خبزنا، قليلون هم الأطفال الصبيان منهم الذين كانوا لا يستمتعون بالنظر طويلا إلى العجين وهو يصنع ثم يقطع إلى كويرات صغيرة ثم تشكل هذه الأخيرة على شكل أقراص رائعة كانت تزين بختم خشبي محفور عليه ختم أو بصمة العائلة فلكل منها ختمها الخاص لأن الخبز كان يرسل ضمن عدد هائل من الأخبار إلى الفرن، حتى نستطيع التعرف عليه. طفلا كانت تستهويني صناعة عنصر



أساسي من غذائنا فقد كانت أمي تقطع مرحة قطعة من العجين لتعطيها إلي حتى أعجنها بدوري، وبعد صناعة الخبز كان يرقد هذا الأخير في مناديل دافئة بعد أن يغطى جيدا.

وعندما تخمر العجينة ويزيد حجمها كان علي أن أحملها إلى الفرن وأن أعود جلبها من الفرن بعد ساعات قليلة. واليوم الذي أحضر فيه شيئا غريبا فكان ذلك من إبداعه وملكائي وحدي. وهكذا كان الأمر يتكرر لمئات بل لآلاف المرات. وفي ذلك اليوم غير مبال كنت أصول وأجول حاملا طبق الخبز المتكون من قرصين أو ثلاث فوق رأسي، كان اللوح موضوعا بتوازن فوق رأسي ولكن فجأة سقط أرضا، يا إلهي كيف حدث هذا؟ هل زلت قدمي؟ هل تاهت خطواتي هنا أو هناك؟ لم يدفعني أحد كنت أنا المخطئ الوحيد والمسؤول الوحيد عن الخطأ وقفت أهدق يائسا الكارثة ولم يبق أمامي سوى أن انفجر بالبكاء.

بالنسبة للمارة كانوا بدورهم إما ساخرين من تعاسي وسوء حظي أو مؤننين لطيشي، حينها اقتربت مني سيدة وبدأت تواسيني من خلف حائكما: "كف عن البكاء، ليس الأمر بهذه الدرجة من الخطورة، سترى كيف سنصلح هذا، اقترب بلوحك". سارعت بطاقتها، فأنكبت السيدة الغريبة عني، وقد تفرقت أذيال حائكما عن وجهه بلامح هادئة ومواسية، كان وجهها حنونا، مبتسما، وقد جمعت الخبزات التي أصبحت بشعة، مخلصة إياها من كل الشوائب كالغبار والأحجار التي غرست بداخلها، وقد أعادت عجنها وتشكيلها حتى صار شكلها لائقا، وبنفس الإبتسامة التي جازمت أنها لم تكن تخلوا من المكر، أعادت لوح الخبز فوق رأسي موصية إياي.

بكلتا اليدين الآن، سوف تحمل اللوح بكلتا اليدين وأسرع بالوصول إلى الفرن قبل أن يفسد الخبز.

أنا لا أتذكر إن كانت هذه المغامرة (التجربة) قد لقتني شيئا ما، فبعد يوم أو يومين عدت إلى عادي السيئة المتمثلة في اللامبالاة والتكبر (vaniteux) وكنت

أسير دون أن أمسك بلوح الخبز تارك إياه للتوازن فوق رأسي، ذاكرتي كانت خرساء في هذا المجال.

كانت الرابطة الحميمة التي تربطنا مع الخبز، رابطة أخرى وكانت تتمثل في الإحترام الذي كنا نحيطه به، إشارة ملموسة للمقدس كما كان يتمثل لنا، هل كان هذا راجعا لكون أننا كنا نصنعه نحن (صنيعنا نحن)؟ وهذا يجعله يتقارب من الصلاة .
المهم أننا كنا ودون تمييز غني أو فقير نكرس له نفس الإعتبار والإحترام كم كان إستيائنا وسخطنا كبيرين حينما نرى وعلى غير المألوف أحدهم يدنس الخبز بقدميه، كنا نلتقطه ونضعه بعد أن نشرفه بقبلة بمنأى عن كل تدنسي.

قراءة في مقال محمد ديب:

إن المقال البسيط، بساطة الخبز، لم يكن بهذه الإرتجالية المقروءة والمكتوبة، إذ أن للخبز عند محمد ديب معنا آخر أعمق بكثير، إن محمد ديب الكاتب الرومانسي الذي بقيت جذور إنتماءه إلى تلمسان متمكنة من قلم الكتابة عنده ثمكنا رهيبا قد طبع هذا الحنين المتغلغل بداخل الكاتب كل أسطره.

واسمحوا لي أن أصدقكم القول أن ترجمة محمد ديب والتي تبدوا للوهلة الأولى بسيطة مبتدلة، ليست أبدا كذلك، إذ أن الكاتب ليس كاتباً فحسب إنه الإنسان الطفل الذي يكتب بحنان متدفق كتاباته عن المدينة الأم، ونلتمس صدقا رهيبا في نفسية الشاعر وفي مقروءاته.

إن الهدف السامي من وراء الترجمة هو نقل وإيصال رسالة الكاتب بصدق وحياد كبيرين إلى القراء، ولكن الأمر حينما يتعلق بمحمد ديب يصبح صعبا جدا لأن هذا الأخير يكتب بكل اللغات في لغة واحدة ويلخص كل المعاني في معنا واحد، فالخبز كغذاء بسيط له عنده قراءة أخرى وأهميته بالغة وتأويلا شخصيا عميقا.

ولنعد إلى الخبز إذن فهو يقول: " لم يكن من اللائق أن يصنع الغرباء الخبز، رجل ونعطيهِ بعض النقود مقابل ذلك"

من يربو في تلمسان ويعيش فيها يعلم أن لدى عائلاتها تقاليد راسخة في أمور مختلفة من بينها صناعة الخبز فصناعة الخبز فن خاص بكل عائلة أولا ومن غير اللائق أبدا أن يأتوا بالخبز من الخارج ويصنعه رجل.

لقد قاسم الخبز أهل تلمسان معاناتهم الطويلة مع لقمة العيش فقدسوه وحافظوه عليه أيما حفاظ.

إن للخبز علاقة وثيقة بالإنتماء والأصالة، ولعل أكثر ما يشدنا في المقال هو ربطه بالأم، لأنه لا يصنع إلا من طرفها يوما أنها منبع الحنان ورمز استمرارية الحياة وقد وضع محمد ديب بين الإثنين الخبز - الأم علاقة تكامل وكأن الإثنين يرمزان إلى ديمومة الحياة ويعدان سببان في وجودها واستمرارها.

ونمر في المقال فنجد طريقة الصنع تحوي طقوسا معينة، حرص الكاتب على ذكرها رغم بساطتها لأنها جزء لا يتجزء من هويتنا وإنتماءنا فلكل منطقة طقوسها وعاداتها في كل مناحي الحياة.

وقد أعجبني أسلوبه حينما ذكر أن الخبز يرقد في مناديل دافئة، فقد أعطى للخبز قيمة إنسانية كبرى، محمد ديب يتحسس الأمور بقلب الإنسان الدافئ الحنون فالخبز لا يرقد لأنه شيء مجرد من الحياة لكن الكاتب أضفى عليه الحياة حتى يزيد من قيمته.

ثم نستمر في القراءة ونتوقف عند الحادث الذي وقع له، والحادث قد وقع لنا جميعا ونحن أطفال ذهابا أو إيابا من الفرن ولكن المهم في الحادث هو اعتراف الكاتب صادقا بمسؤوليته وحده في الخطئ رغم سذاجة الطفولة وبداهة الحادث.

إننا نطلع على مستوى المسؤولية التي أدركها محمد ديب منذ الصبي، بالرغم من أننا نحاول دائما إلصاق الأخطاء بالآخرين والإلقاء باللوم على الغير.

لقد تحدث مواصلا عن المرأة التي رقت لدموعه اليائسة وعملت على مساعدته ليظهر الطيبة الكامنة في هذه المدينة وأهلها البسطاء، كما أراد التركيز على

نصيحتها التي وإن لم يعمل بها إلا أنه أدرجها لأنها كانت عملية تحسيس سريعة وبسيطة.

ويعود إلى الصدق في حديثه عن عدم عمله بالنصيحة وهنا يظهر الحس المسؤول للكاتب الذي كان طفلا يحمل بين ضلوعه طفولة مغامرة خالية من كل سوء ومن كل مكر ومع أنه لم يعمل بالنصيحة إلا أنه ختم مقاله بإدراج قيمة الخبز في المجتمع في ذلك الوقت لأن هذا الأخير كان يعيش حالة من الفقر المدقع لذلك كان الكل يقدس الخبز ويحافظ عليه.

إننا نستشف من المعنى المجاز للمقال أن الكاتب أعظم من أن يتحدث عن الخبز ولكن العظماء دائما يتمسكون بالقيم الإنسانية ويحترموها فالخبز قيمة غذائية كبرى، أعطاهما محمد ديب احتراماً وتقديراً من قطعي النظر.

التعريف بالكتاب: الكتاب بعنوان : تلمسان أو أماكن الكتابة لمحمد ديب

ويحمل الكتاب مجموعة من الصور لمحمد ديب أخذت في سنة 1946 وقد نشرها Philippe Bordas والكتاب يحمل تقديمًا لصفحتين لـ Jean Loup Pivin بعنوان صورة الزمان، والتقدم يتكلم عن الحميمة التي جمعت الإثنين محمد ديب وPhilippe Bordas الذي أصبح العين الناقلة والمسافرة للكاتب محمد ديب، كما يتكلم عن مساهمة المركز الثقافي الفرنسي بتلمسان وميدره في حفظ الذاكرة الحاضرة، كما يظهر قوة آلة التصوير في خدمة الكتابة.

يحتوي الكتاب على عدة صور رائعة لتلمسان ومعاليها وسكانها بحايتهم الاجتماعية وعاداتهم ومنازلهم.

ثم نجد كتابة محمد ديب وتقديمه لأماكن الكتابة ومقالات الكتاب كالتالي:

Le patio
La voix de l'écriture
Les trois frères
Les espaces de liberté
Des enfants pleins la ville
Le pain
Le four banal
L'enfance de l'art
Les lieux disparus (le Medresse)
La maison du dhikr
Bab sidi boumedine
Les impasses de l'écriture
Les jardins de l'éternité
La grille
La source de la vie
Abou madyan
La ville
Tlemcen 1993 photographie de philippe Bordas

Résumé sur le pain

Mohammed Dib a commencé son chapitre sur le pain par une très belle introduction intitulée: nous vivons dans l'intimité du pain. Et c'est à travers cette expression que s'est déroulé tout l'article qui a montré un très grand intérêt que porté les habitants de Tlemcen au pain. Mohammed DIB nous a expliqué la façon avec laquelle on confectionnait le pain et à quel point c'était important pour lui: "rares étaient les enfants garçons y compris qui n'affectionnaient pas de rester à regarder, si

Longtemps, pétrir la pâte ..." jusqu'à ce qu'il le dise d'une façon personnelle et sincère: "enfant, l'élaboration d'un élément essentiel de notre nourriture me captivait pour ma part.. "Jusqu'à ce qu'il nous raconte l'inoubliable incident qu'il juge de "mémorable alors !" Il avait fait tombé le pain : "un faux pas? Un mouvement intempestif ? je l'ignore ...j'étais seul en faute".

Ce qui m'a plu dans cette phrase, c'est le grand sentiment de responsabilité de l'auteur

En lisant Mohammed DIB, on croirait lire en nous même, grand est son sentiment de responsabilité et grande est sa sincérité envers ces lecteurs Mohammed DIB évoquait un passé romantique et heureux à travers tous les éléments qui constituaient la vie, parmi eux le pain qui avait une place magistrale à Tlemcen la ville qu'il a tant aimée. □